ابن حزم.. مفهرس الأندلس ومدّاحها

● د. فايز القيسي / جامعة مؤتة

دراسة نقدية في رسالة ابن حزم في فضل الأندلس وذكر رجالها

تنتمي رسالة ابن حزم في فضل الأندلس وذكر رجالها إلى أدب الرسائل الذي يدور حول الإشادة والمباهاة بفضائل الأندلس وما فيها من سمات الحضارة وألوان الثقافة والعلم، وبما خصَّها الله به من محاسن وسمات تنفرد بها دون غيرها.



لقد كتب أبوعلي بن الربيب القيرواني (ت ٤٢٠ هـ) إلى الوزير الكاتب أبي المغيرة بن حزم رسالة يلوم فيها علماء الأندلس على تقصيرهم في الإشادة بمحاسن أهل بلدهم[١]. وقد ذكر ابن بسام في كتابه الذخيرة أن أبا المغيرة قد رَدَّ عليه برسالة أطال فيها القول، وتناول فضل الأندلس وأهلها ومدنها وعلمائها، وأعرض ابن بسام عن نقلها لنا كاملة، واقتصر على إثبات جزءٍ يسير منها. وقد بدأ رَدَّه بكلمة إطراءٍ لابن الربيب وذكر لبعد صيته بين أدباء الأندلس، يقول : وما زلت أتنسَّم ذكرك، فأترسَّم قدرك، وأسمع خبرك ... حتّى أرادت الأيام كشف السر، ورفع الستر، فوقفت على الصحيفة التي ظاهرها ديباج مرقوم، وباطنها لؤلؤ منظوم، ووشي محوك، وذهب مسبوك، فرأيت صور الأدب باهرة المرأى والعيان، شاهدة لك بأذلق لسان، وأصدق بيان، أنّك أبوعذرتها، ومالك جملتها، وواحد فنونها، ووارد معينها ...»[٢].

ونلمح في ثنايا ردّ أبي المغيرة بن حزم شكوى مبطّنة من هذه الغربة التي يعاني منها أهل الأندلس، وانصراف أهل المشرق عن تدوين علوم الأندلسيين وفنونهم وآدابهم، حيث يقول : «وعلى كل حال، فقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرّها يعلن ...»[٣].

ثم أن أبا محمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ) الإمام الأندلسي المشهور، وهو ابن عم أبي المغيرة عثر على رسالة ابن الربيب بعد وفاة مؤلّفها، فرد عليه برسالته المشهورة في فضائل الأندلس. وقد فخر فيها بفضل الأندلس وأهلها ومدنها وما فيها من سمات الحضارة والتقدم، وأورد فيها عدداً كبيراً من أسماء العلماء والأدباء في الأندلس في مختلف فروع المعرفة حتى عصره، وتحتل هذه الرسالة مكانة عظيمة في الفكر الأندلسي لأنه وضع فيها سجلاً حافلاً بمصادر التراث، إلى حد أن الأستاذ شارل بلاّ أطلق على ترجمته لهذه الرسالة وما أضاف إليها من دراسة عنوان «ابن حزم مفهرس الأندلس ومدَّاحُها»[٤].

وقد افتتح ابن حزم رسالته بمخاطبة صديقه الحميم أبي بكر بن إسحق المهلبي، وذكر له أنه وقع في يده رسالة ألّفها رجل من مصاقبي الأندلس، أخذ فيها عليهم إهمال الأندلسيين لذكر علمائهم وفضائلهم وأدبائهم[٥].

ثم انتقل إلى الثناء على صاحب البونت (من أعمال بلنسية) الرئيس الأجل أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن قاسم الذي ولي أمرها بعد وفاة والده سنة ٤٢١ هـ وحكمها حتى سنة ٤٣٤ هـ، ووصف المجلس الأدبي الحافل بأصناف الآداب وأنواع العلوم والمعارف الذي كان يعقده في بلاطه، وذكر كيف أن أبا عبدالله كان «حريصاً على أن يجاوب هذا المخاطب، وراغباً في أن يبيّن له ما لعلّه قد رآه فنسي، أو بعد عنه فخفي ...»[٦].

ثم يسرد ابن حزم فضائل الأندلس ومآثرها، ويحدِّثنا عمَّا ألّف فيها، ويحاول أن يضفي على الأرض الأندلسية صفة القداسة مستمداً إيَّاها من حديث ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يقول : «وأنا أقول لو لم يكن لأندلسنا إلاّ ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشّر به أسلافنا المجاهدين فيه، بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي رويناه ... لكفى شرفاً بذلك»[٧]، وهو هنا يشير إلى حديث أورده مسلم، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت. فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أستيقظ وهو يضحك. فقالت وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله



يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة. قالت : فقلت يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم ... قال : أنتِ من الأولين»(٨).

فركبت البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان، فسقطت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت.

لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن طائفتين من أمته يركبون ثبج البحر غزاة واحدة بعد واحدة، فيسر أم حرام أن تكون مع الأولين، والأولون هم المجاهدون الذين فتحوا جزيرة صقلية صدر الدولة الأغلبية سنة ٢١٢ هـ. أمّا أهل الطائفة الثانية فهم المجاهدون الذين فتحوا إقريطش وبلاد الأندلس خلال الفترة التاريخية من ٢٣٠ ـ ٢٥٠ هـ.

ثم يحدد ابن حزم موقع الأندلسيين في الأقاليم الإسلامية، ويبين أثر طبيعة الاقليم في ذكاء الأندلسيين ونبوغهم، يقول : «وأمّا في قسم الأقاليم فإنَّ قرطبة مسقط رؤوسنا ومَعَق تمائمنا، مع سُرَّ من رأى في إقليم واحد، فلنا من الفهم والذكاء ما أقتضاه إقليمنا، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلّا مغربة عن مطالعها عن الجزء المعمور»(١٠).

وهو في هذا يعمد إلى إسلوب المناقشة والجدل في سوق الحجج والبراهين، ومن ذلك قوله : «وقد صدق ذلك الخبر، وأبانته التجربة، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات، وحفظ كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم، بمكان رحب الفناء واسع العطن، متنائي الأقطار، فسيح المجال»(١١)..

ويناقش بعد ذلك قضية مهمة هي الشخصية الأندلسية، فيحددها تحديداً دقيقاً ملتزماً في ذلك رأي الجماعة من المؤرخين والأئمة السابقين، فهم «متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرَّ بها، ولم يرحل عنها، رحيل ترك لسكناها إلى أن مات»(١٢).

ويخرج بنتيجة مفادها أن «من هاجر إلينا من سائر البلدان، فنحن أحق به، و هو منّا بحكم جميع أولي الأمر منا ... ومن هاجر مِنّا إلى غير فلا حظ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم، فكذلك لا ننازع في محمد بن هانىء سواها ...»(١٣) وهو هنا يقيم الدليل على ما يذهب إليه.

وقبل أن يعالج ابن حزم موضوعه الأساسي يتناول قضية مهمة تلك هي **مكانة العالم في بلده**، فيشير إلى تنكر الأندلسيين لمن نبغ منهم في العلوم، وما يناله من غمط حقوقه، وجحود علمه، وطمس فضله، وهو هنا يقيس على ما لقيه من أهل عصره من تحامل الفقهاء والأدباء وذوي السلطة ضده، وهو هنا يكشف



لنا عما يغمر نفسه من مرارة وألم وقلق، وضيق لما يلاقيه في هذه البلاد التي طالما أحبها وأخلص لها، يقول: «وأمّا جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر "أزهد الناس في عالم أهله" ... ولا سيما أندلسنا، فإنّها خُصّت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد. إن أجاد قالوا: سارقٌ مغيرٌ، ومنتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد و ضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق، قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ ...»(١٤).

ويبين بعد ذلك فضل بلاده، ومدى مساهمتها ورجالها في بناء الفكر الإسلامي، فيقدّم ثبتاً بأعلام النهضة الفكرية في الأندلس ويعدد تآليفهم، ومصنفاتهم في مختلف فروع المعروفة من تاريخ وأخبار وفقه ولغة وشعر وطب وفلسفة وعدد وهندسة وحديث و علم كلام وغيره ... ولم يورد من تلك التآليف إلّا المستحقة الذكر والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلّا في أحدها، وهي إمّا شيء يخترعه لم يسبق إليه، أو شيء ناقص يتمه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه صاحبه يصلحه.

أمّا التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم يلتفت إلى ذكرها، وهي عند الأندلسيين كما يذكر ابن حزم أكثر من أن يحيط بعلمها(١٥).

ولعل من المفيد أن تقف عند بعض مشاهد أعلام الثقافة الأندلسية الذين ضرب بهم ابن حزم المثل في المعرفة والشهرة وحسن الأثر. ومن هؤلاء أبوعبدالرحمن بن بقي بن مخلد بن يزيد القرطبي المتوفى سنة ٢٧٦ هـ، الذي كان عالماً مفسراً وفقيهاً مجتهداً وحافظاً محدثاً، وصاحب تصانيف مختلفة في التفسير والحديث وغيرهما. ولقد برع في تفسير القرآن الكريم حتّى وضع في ذلك مؤلفاً قطع ابن حزم قطعاً لا يستثنى منه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله، لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره. و له في الحديث النبوي مصنف كبير رتبه على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ورتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنف مسند، وقد ذكر ابن حزم أن عدد الشيوخ الذين روى عنهم بقي بن مخلد هذا المصنف مائتان وأربعة وثمانون رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء، وسائرهم أعلام مشاهير.

ولبقي بن مخلد مصنف آخر في فضل الصحابة والتابعين ومن دونهم، وقد أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف عبدالرزاق بن همام، ومصنف سعيد بن منصور وغيرها، وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه، فصارت تآليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام لا نظير لها، وكان متخيراً لا يقلد أحداً(١٦).

ومنهم أبوعمر أحمد بن قزح (ت ٣٦٠ هـ) الذي كان وافر الأدب، كثير الشعر، معدوداً في العلماء والشعراء، وكان قد وضع كتاب «الحدائق» معارضاً به كتاب «الزهرة» لأبي بكر محمد بن داود الأصهاتي (ت ٢٩٧ هـ)، غير أن أبابكر إنّما أدخل مائة باب، في كل باب مائة بيت، وأبوعمر أورد مائتي باب، في كل باب مائة بيت ليس فيها باب تكرر أسمه لأبي بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد، فبلغ الغاية، وأتى الكتاب فرداً في معناه(١٧).

ومنهم أبوعلي إسماعيل بن القاسم القالي (ت ٣٥٦ هـ)، الذي كان أحد مشاهير المشارقة الذين هاجروا إلى الأندلس وساهموا

في النهضة في اللغوية والأدبية التي شهدتها الأندلس عصر قرطبة. وقد وضع عدداً من المصنفات منها «البارع» الذي يعدّ من أشهر كتب لغة العرب، و«المقصور والممدود والمهموز» الذي لم يؤلف مثله في بابه، و «الإبل والخيل»، و«فعلت وأفعلت»[١٨].

ومهما يكن من أمر، فإن ثبت المفكرين والعلماء الأندلسيين الذي قدَّمه ابن حزم، وفهرست أمهات مؤلفاتهم في مختلف فروع المعرفة الإنسانية يدل على سعة ثقافة ابن حزم وعمقها، وعلى إطّلاعه الواسع، ومقدرته على تقييم المصنفات والتآليف ونقدها[١٩].

ونلمح في رسالة ابن حزم شعوره بأندلسيته ومباهاته ببلده الذي يعتبر حضارة العراق مثله الأعلى والأنموذج الذي يحتذى، بل إنَّ لمراكز الحضارة العربية الإسلامية في المشرق مكانة عظيمة في نفسه، يقول : «وهذه بغداد حاضرة الدنيا، ومعدن كل فضيلة، والمحلّة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف، والتدقيق في تصريف العلوم ... وهذه البصرة وهي عين المعمورة في كل ما ذكرنا...»[٢٠].

ويختتم ابن حزم رسالته بذكر من تتباهى به الأندلس من رجالها وعلمائها وأدبائها، وهو هنا يعقد مقارنة بينهم وبين أمثالهم من المشارقة في كل ميدان، يقول : ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلّا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين ... وإذا سمَّينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلّا محمد ابن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري ... وإذا صرَّحنا بذكر محمد بن يحيى الرياحي، وأبي عبدالله محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد ...»[٢].

وواضح أن ابن حزم يضع أساساً جديداً لمفاخرة البلدان، فهو يرى أن العلم وحده هو ينبوغ الفضائل، وأن العلماء وحدهم هم الذين يحق للبلدان أن تتفاضل بهم، وهذا يعدُّ تطوراً جديداً في أدب المفاضلات بين البلدان[٢٣].

وتعدُّ رسالة ابن حزم سجلاً حافلاً بمظاهر النشاط العلمي والأدبي في الأندلس حتى عصر مؤلفها، ومناظرة أدبية يتحدَّى بها من عاب على أهل الأندلس تقصيرهم في ذكر علمائهم، وهي تحتل مكانة رفيعة في الأدب الأندلسي، لبراعة صاحبها في الرد والحجاج.

الهوامـــش

(١) انظر رسالة ابن الربيب في : ابن بسام، أبوالحسن علي، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، ٤ ق/٨م، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩.
ق ١ م ١، ص ١٣٣ ـ ١٣٦، المقَّري
نفح الطيب، ٨ ج، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦، ج ٣، ص ١٥٦.

(٢) الذخيرة، ق ١ م ١، ص ١٣٦.

(٣) الذخيرة، ق ١ م ١، ص ١٣٨.

(٤) انظر : حوليات الجامعة التونسية، ع ٢٠، ص ٣٨، ومجلة الأندلس، ع ١٩، ١٩٥٤، ص ٥٣ ـ ١٠٢.

(٥) انظر : ابن حزم «رسالة ابن حزم في فضل الاندلس»، في رسائل ابن حزم، ج ٢، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص ١٧١.

(٦) رسائل ابن حزم، ج ٢، ص ١٧٢.

(٧) رسائل ابن حزم، ج ٢، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٨) مسلم، صحيح مسلم، ٨ ج، القاهرة، د.ت، ج ٣، ص ١٥١٨.